قراءة في أصالة الوجود
على ضوء كتاب «النظام الفلسفي لمدرسة الحكمة المتعالية»

أحمد جابر(*)

تستمرّ مدرسة ملاّ صدرا في اجتذاب الباحثين والمحقّقين على الرغم من مرور قرون على تأسيسها. وتظلّ مبانيها الأساسيّة - أصالة الوجود واعتباريّة الماهيّة والوجود المشكّك - مدار النقاشات الفلسفيّة التي تُطرح على ضوء مدرسة الحكمة المتعالية. ذهبت محاولات تجديديّة في الفلسفة إلى اقتراح تنويعات إضافيّة على الأساس الصدرائيّة تلك، فكان أن جذبت هي الأخرى اهتمام المتابعين الذي تصدّوا لدعمها أو دحضها، ممّا خلق ميدانًا جديدًا للبحث الفلسفيّ يؤكّد على عمق المدرسة الصدرائيّة واستمرار نبضها إلى اليوم.

مصطلحات مفتاحيّة: ملّا صدرا؛ العرفان النظريّ؛ أصالة الوجود واعتباريّة الماهيّة؛ الحكمة المتعالية؛ عبد الرسول عبوديّت؛ غلام رضا الفياضي؛ محمّد تقي مصباح اليزدي.

تعتبر الحكمة المتعالية من المدارس الفلسفية التي تركت أثرًا عميقًا في مسار الفلسفة الإسلامية بعد المدرستَين المشّائية والإشراقيّة، بل يمكن القول إنّها تربّعت على عرش الفلسفة الإسلاميّة بعد المدرستَين الآنفتَي الذكر، خصوصًا في حوزة الدراسات الفلسفية عند المسلمين الشيعة.

وعندما نطلّ على هذه المدرسة ومؤسسها الكبير صدر المتألهين الشيرازي، لا يمكننا في دراستنا لأصولها، وفي سبرنا لآثارها والنتائج التي ترتّبت على تلك الأصول، إلا وأن نقف بعض الشيء عند المنابع التي استقت منها هذه الفلسفة أصولها وقواعدها، وعلى رأس تلك المنابع يقع علم العرفان النظري.

وبرأي العديد من الباحثين والمحققين، فإنّ فهم أصول الحكمة المتعالية، وما رامه صدر المتألهين من طرحها يتوقف على الدراسة العميقة لجذور تلك الأصول في علم العرفان

(*) أستاذ الفلسفة وعلم الكلام في الحوزة العلمية.

النظري، سواء في ذلك في دراسات الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي، أو تلميذه المبدع صدر الدين القونوي أو آخرين غيرهما. ذلك أن الحكمة المتعالية إنّما ولدت في مسار التقارب بين الفلسفة كعلم يعطي العقل الأولويّة في الكشف عن حقائق الكون والوجود، وبين العرفان كعلم يعطي الكشف والشهود الأولوية على هذا الصعيد.

بل يمكن القول إنّ التقارب بين الفلسفة والعرفان قد بلغ أوجه في الحكمة المتعالية على يد صدر المتألهين، حيث وفّق وبعد جهود جبارة لأن يقدّم صياغةً فلسفيةً محكمةً للمطالب العرفانية وجعلها أمورًا برهانيّةً وعقلانيّةً.

يقول أحد الأساتذة البارزين للفلسفة والعرفان في حوزة قم المقدّسة: «تمكّن ملا صدرا من الوصول بالجهود التي بذلها العرفاء والفلاسفة في العمل على التوفيق فكرًا ولغةً بين الفلسفة والعرفان إلى أوج غايتها وكمالها النهائيّ [...] ولم يقتصر على التوحيد بين الفلسفة والعرفان في المنهج، بل وسّع ذلك ليشمل المضمون أيضًا [...] وتمكّن من جعل ما كان يطلق عليه العرفاء السابقون أطوارًا وراء طور العقل أمرًا عقلانيًّا»[1].

ويتحدث أستاذنا الشيخ حسن رمضاني الأستاذ القدير في هذا المضمار عن مدى الارتباط بين الحكمة المتعالية والعرفان، مبيّنًا أن لا سبيل لفهم الحكمة المتعالية لا أقلّ في بعض مجالاتها جيدًا دون الاشتغال قبلها بدراسة العرفان النظريّ قائلًا: «إنّ للعرفان النظريّ وما صنّف فيه من الكتب في تكوّن الحكمة المتعالية وتولّدها دورًا شاخصًا، ومكانةً خاصةً. وإنّ لها به ارتباطًا وثيقًا وتعلّقًا شديدًا، بحيث لو ادّعى مدّعٍ أنّ الوصول إلى مغزى مراد الآخوند الملا صدرا (قدس سره) لا يتيسّر في بعض المجالات إلا لمن كان مطّلعًا على العرفان النظريّ ومباحثه، لما كان مجازفًا في ادّعائه»[2].

لا أريد الإطالة كثيرًا في هذه المسألة وإنّما أحببت الإشارة إليها في بدء هذه المقالة ليكون القارىء على بيّنة من أمره وهو يروم دراسة وفهم الحكمة المتعالية جيّدًا.

---

(١) يد الله يزدان بناه، **العرفان النظري: مبادئه وأصوله**، تدوين عطاء أنزلي، ترجمة علي الموسوي (بيروت: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، الطبعة ١، ٢٠١٤)، الصفحة ٦٥.

(٢) صائن الدين بن تركه، **التمهيد في شرح قواعد التوحيد**، تقديم وتصحيح وتعليق حسن الرمضاني الخراساني (بيروت: مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر، الطبعة ٢، ٢٠١١)، الصفحة ٧.

أصالة الوجود وكون حقيقته مشككةً

يمثّل القول بأصالة الوجود واعتباريّة الماهية، وكون حقيقته واحدةً مشكّكةً ركيزتَي الحكمة المتعالية. وهذا ما يشير إليه أكثر الباحثين فيها. ولو غضضنا الطرف عن هاتَين الركيزتَين أو أعرضنا عنهما، فإنّ أكثر إن لم نقل جميع مباحث الحكمة المتعالية ستصبح آيلةً للسقوط، إن لم نقل إنها تسقط حقيقةً. ولذلك فمن الجدير أن تبذل الكثير من الجهود في سبيل فهم هذَين الأصلَين جيّدًا.

وقد اشتغل الكثير من الباحثين والأساتذة المحققين في الفلسفة خصوصًا في حوزة قم المقدَّسة على دراسة الأصلَين المتقدّمَين وغيرهما من الأصول في الحكمة المتعالية، وكتبت العديد من الأبحاث والكتب على هذا المجال؛ منها ما جعل متنًا درسيًا فيما بعد، ومنها ما جعل مرجعًا تحقيقيًا يعين طلاب المعرفة في دراستهم. وكان من بين تلك الآثار الكتاب القيّم **النظام الفلسفي لمدرسة الحكمة المتعالية** لمؤلفه سماحة الشيخ الدكتور عبد الرسول عبوديّت. الذي ومن دون مبالغة قدّم من خلال كتابه المذكور جهدًا مهمًا وعملًا علميًا راقيًا، سلّط من خلاله الضوء جيدًا على الأسس والمباني الرئيسية للحكمة المتعالية، وتناول العديد من النقود التي وجِّهت لبعض مبانيها، أو التفاسير الخاطئة لها، وسعى من أجل دفع الكثير منها. وهو بهذا قدّم خدمةً جليلةً للفلسفة وروّادها، لاسيما فلسفة الحكمة المتعالية. ومن هنا فهو يستحق على عمله هذا كلّ شكر وتقدير من طلاب العلم والمعرفة.

وقد عمل المؤلف في كتابه هذا، على القيام بقراءة متأنّية عميقة لكلمات المؤسس لمدرسة الحكمة المتعالية «صدر المتألهين الشيرازي»، في مختلف كتبه، وهو ما تطلّب منه القيام بجهودٍ جبّارة على هذا الصعيد، من الطبيعي أن تمتدّ لسنوات عديدة، مستعينًا بخبرته التي اكتسبها كدارسٍ ومدرِّسٍ للحكمة المتعالية، وقد كان وبكل إنصافٍ أمينًا في قيامه بهذه المهمة، وهو ما يلحظه القارىء لكتابه الماثل بين أيدينا.

مع أصالة الوجود

الوجوه المطروحة حول مسألة أصالة الوجود أو الماهية تدور بين أربعة احتمالات:

الأول: أن يكون الوجود هو الأصيل والماهية اعتباريّةً.

الثاني: أن تكون الماهية أصيلةً والوجود اعتباريًا.

الثالث: أن يكونا معًا أصيلَين.

الرابع: أن يكونا معًا اعتباريَّين.

ومن المعروف في أوساط الباحثين أن الأقوال تكاد تنحصر عند المحققين في الحكمة بين قولَين؛ هما الأول والثاني. أمّا الاحتمالَين الثالث والرابع فلا يعتدّ بهما، ولم يذهب إلى أحدهما أحدٌ من الحكماء، إلا من صنِّف في دائرة عدم الدقّة والعمق في هذه المسألة.

أمّا بطلان الاحتمال الثالث فلاستلزامه أن يكون كل موجود وهو واحد ذا واقعيّتَين، وهو خلاف البداهة والوجدان. وأما بطلان الاحتمال الرابع فلاستلزامه الوقوع في السفسطة وهي على طرفٍ نقيض من الفلسفة[1].

نعم ظهر في الآونة الأخيرة قول بأصالتهما، ولكن بتفسير يرى صاحبه أنّه لا يلزم عليه ما لزم على الاحتمال الثالث المتقدّم[2].

وفي دراسة الأستاذ عبوديت لهذه المسألة وهي كما أشرنا تشكِّل أحد ركيزتَي مدرسة الحكمة المتعالية أوضح وبشكل مختصر ودقيق أهمّ أدلة الآخوند صدر المتألهين على القول بأصالة الوجود واعتباريّة الماهية. وقد تحدّث في هذا السياق عن عدّة مسائل، أرى أنّها أهم وأدقّ ما اشتمل عليه بحثه في المقام.

وهذه المسائل هي:

١. التأكيد على الصلة الوثيقة بين مسألتَي أصالة الماهية والقول بوجود الكليّ الطبيعي في الخارج.

٢. بيان الفرق بين مفهومَي الوجود والماهيّة في انطباقهما على الواقع الخارجيّ.

٣. إبطال القول بأصالة الوجود والماهية كيفما فُرِض.

ولنبدأ الحديث عن كلٍّ واحد من هذه الأمور الثلاثة بشكل مختصر:

---

(١) لمزيد من التفصيل لاحظ: مرتضى مطهري، **بحوث موسعة في شرح المنظومة**، ترجمة عبد الجبار الرفاعي (إيران: انتشارات طليعة نور، الطبعة ١، ١٤٢٧هـ)، الجزء ١، الصفحات ٦٢ إلى ٦٤.

(٢) لاحظ: محمد حسين الطباطبائي، **نهاية الحكمة**، صححها وعلّق عليها غلام رضا الفياضي (قم: انتشارات مؤسسة آموزشى وپژوهشى امام خمينى، الطبعة ٢، ١٣٨١ هـ.ش)، الجزء ١، الصفحة ٤٣.

المسألة الأولى: الصلة بين القول بأصالة الماهيّة ووجود الكلّي الطبيعي في الخارج

يؤكّد المؤلف المحترم في عدّة مواضع من الفصل الثالث من كتابه على مسألة الارتباط الوثيق بين القول بأصالة الماهية ووجود الكلّي الطبيعيّ في الخارج، وأنّ القول بأصالة الوجود لا ينسجم بتاتًا مع القول بوجود الكلّي الطبيعي في الخارج. وقد تمسّك لإثبات ذلك بالعديد من الشواهد المصرّحة به من كلمات صدر المتألهين.

وفي المقابل يرى بعض الباحثين أنّه لا ضرورة للربط بين القول بأصالة الوجود وإنكار وجود الكلّي الطبيعي في الخارج. وذلك أنّه سواء قلنا بأصالة الوجود أو الماهية فإنّ ذلك لن يؤثّر على وجود الكلي الطبيعي في الخارج إن قلنا به غايته أنّه بناءً على القول بأصالة الماهية سيكون وجوده أوّلًا وبالذات، بينما على القول بأصالة الوجود سيكون وجوده بالمجاز أي ثانيًا وبالعرض.

يقول الشيخ غلام رضا الفياضي: «إنّ هذه المسألة وهي مسألة وجود الكلّي الطبيعيّ ليست نفسَ مسألة أصالة الوجود ولا من متفرّعاته، إذ يتكلّم هنا عن وجود الكلي بعد وجود الفرد، ويبحث هناك عن وجود الفرد، فالقائل بأصالة الماهية يعتقد بأنّ فرد الماهية موجود في الخارج حقيقةً، والقائل بأصالة الوجود يعتقد بأنّه موجود في الخارج بعرض الوجود. والقائل بوجود الكلّي يحكم بوجود الكلّي حقيقةً بوجود فرده، سواء كان وجود الفرد بذاته أم بعرض الوجود، ومنكر وجود الكلي ينفي وجوده مع اعتقاده بوجود الفرد بالذات أو بالعرض [...] فلا القول بأصالة الوجود ينافي القول بوجود الكلي الطبيعي في الخارج، ولا القول بأصالة الماهيّة يحَتِّم القول بوجود الكلّي الطبيعي في الخارج»[1].

ويبدو أنّه بهذا الكلام يشير إلى ما ذكره أستاذه الشيخ المصباح اليزدي الذي وبعد كلامه عن الصلة الوثيقة بين مسالة أصالة الماهية والقول بوجود الكليّ الطبيعي في الخارج يتحدّث عن الجهود التي بذلها القائلون بأصالة الوجود للتوفيق بين القول باعتباريّة الماهية والقول بوجود الكلي الطبيعي في الخارج، مما يرجع إلى القول بأنّ اتّصاف الكلي الطبيعي بالوجود إنّما هو بالعرض أي بعرض الوجود لا بالذات[2].

(١) المصدر نفسه، الجزء ١، الصفحة ٢٧٦، الحاشية رقم ١١.

(٢) لاحظ: محمد تقي المصباح اليزدي، **تعليقة على نهاية الحكمة** (قم: درراه حق، الطبعة ١، ١٤٠٥ هـ)، الحاشية رقم ١٠.

ولكن مع ملاحظة كثرة الشواهد التي أتى بها المؤلّف السيد عبوديت، والتي أجاد في استقصائها تتّضح الصلة بين المسألتَين لا أقل على مستوى الجذور للقول بأصالة الماهية، حيث يمكن القول إنّ الاعتقاد بوجود الكلي الطبيعي في الخارج شكّل أحد أعمق الجذور للقول بأصالة الماهية، بتصوّر بعضهم أنّ هذا الوجود المنسوب إليه إلى الكلي إنّما هو بالذات وحقيقي في مقابل الحقيقة العينية للوجود[1].

المسألة الثانية: أصالة الوجود أو الماهية

من الواضح عند المشتغلين في الحكمة المتعالية، بل والمشتغلين في الفلسفة مطلقًا أنّ البحث عن الأصالة والاعتبار بالقياس إلى الماهية والوجود إنّما يقع بعد الفراغ من التسليم بأنّ ها هنا واقعية خارجية وأنّها كثيرة، فهناك إنسان موجود، وسماء موجودة، وأرض موجودة، وشجر وحجر وبقر وفرس وغير ذلك موجودة.

فهل أنّ الواقعية الخارجية هي مصداق أولًا وبالذات لمفهوم الوجود، والماهيات أمور منتزعة من هذه الواقعية المتنوعة وحواكٍ (نفس أمرية) عنها؟ أو أنّها مصداق أولًا وبالذات للماهيات المختلفة بحيث يكون لتلك الماهيات موطنان: أحدهما الخارج والآخر الذهن، وهي مصداق ثانيًا وبالعرض لمفهوم الوجود المنتزع من لحاظ تحقّق تلك الماهيات؟

القائل بأصالة الوجود يذهب إلى الأول، بينما يذهب القائل بأصالة الماهية إلى الثاني.

ولقد أجاد العلاّمة الطباطبائي في الاستدلال على القول بأصالة الوجود بعبارة موجزة ومختصرة ولكنها غنية في دلالاتها قائلًا: «وإذا كان كل شيء إنما ينال الواقعية إذا حُمل عليه الوجود واتّصف به، فالوجود هو الذي يحاذي واقعية الأشياء وأمّا الماهية فإذا كانت مع الاتصاف بالوجود ذات واقعية، ومع سلبه باطلة الذات، فهي في ذاتها غير أصيلة، وإنما تتأصّل بعرض الوجود»[2].

---

(١) لاحظ كلام الأستاذ عبد الرسول عبوديت في: **النظام الفلسفي لمدرسة الحكمة المتعالية**، ترجمة علي الموسوي، مراجعة خنجر حمية (بيروت: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، الطبعة ١، ٢٠١٠)، الجزء ١، الصفحات ١٥٧ إلى ١٦٠، الحاشية رقم ٢. وقد أشار الشيخ المصباح اليزدي إلى ما يقترب من هذا المعنى بقوله: «ليس من الجزاف اعتبار القول بوجود الكلي الطبيعي في الخارج من أعمق جذور القول بأصالة الماهية» [انظر: **تعليقة على نهاية الحكمة**، مصدر سابق، الحاشية رقم ١٠].

(٢) **نهاية الحكمة**، مصدر سابق، المرحلة الأولى، الفصل الثاني.

وهو بكلامه هذا يعكس أحد أهم استدلالات صدر المتألهين على هذا المطلب، والذي بيّنه المؤلّف في كتابه تحت عنوان الدليل الثاني[1].

ومع غض النظر عمّا تقدم فإن المؤلف المحترم تحدّث في سياق كلامه عن النزاع حول وجود الكلي الطبيعي في الخارج، وبلفتة بارعة منه عن وجود معنيَين لكلمة الموجودية، إن التفتنا إليهما جيدًا أمكننا الجمع بين انطباق مفهومَي الوجود والماهية على الواقع الخارجي، مع كون أحدهما وهو الوجود أصيلًا والآخر وهو الماهية اعتباريًا.

يقول المؤلّف إن ها هنا معنيان لمفردة (موجود):

أحدهما: أن يكون المراد من قولنا إنّ (أ) موجود أي إنّه حاكٍ عن الواقع الخارجي ومتّحد به ومرآة له.

والثاني: أن يكون المراد من قولنا إن (أ) موجود أي إنه هو الذي يملأ متن الواقع ويتكوّن منه العالم الخارجيّ[2].

وعندما يقول فلاسفة الحكمة المتعالية وعلى رأسهم الآخوند «إنّ الماهية موجودة» و«الكلّي الطبيعيّ موجود في الخارج» فإنّهم يقصدون من الموجودية المعنى الأول أي الحكاية والانطباق، دون المعنى الثاني. لأنّ حيثية الماهية المأخوذة على نحو اللا بشرط بالقياس إلى الوجود والعدم ليست هي حيثية التشخّص، فلا يصدق في موردها الموجودية بالمعنى الثاني. بخلاف حيثية الوجود فإنّها وباعتبار كونها عين حيثية التشخّص، كان معنى الموجودية المحمولة عليها كما في قولنا «إن وجود الإنسان موجود» أنّها هي التي تملأ متن الواقع ويتكوّن منها العالم الخارجيّ.

يقول صدر المتألهين: «إنّ حقائق الأشياء عبارة عن وجوداتها الخاصة التي هي صور الأكوان وهويّات الأعيان، وإنّ الماهيات مفهومات كلّية مطابقة لهويات خارجية»[3].

---

(١) لاحظ: **النظام الفلسفي لمدرسة الحكمة المتعالية**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحات ١٢١ إلى ١٢٣. ولكننا نسجّل على تقرير المؤلف المحترم لهذا الدليل كما جاء في الكتاب بنسخته العربية وجود حلقة مفقودة فيه لا يعثَر عليها إلّا بمراجعة كتاب **المشاعر** الذي اقتبس منه المؤلف تقريره، لا سيّما في قول صدر المتألهين: «إنّ حقيقة كلّ شيءٍ هو وجوده الذي يترتّب به عليه آثاره وأحكامه، فالوجود إذن أحقّ الأشياء بأن يكون ذا حقيقة، إذ غيره به يصير ذا حقيقة، فهو حقيقة كلّ حقيقة، فلا يحتاج هو في أن يكون ذا حقيقة إلى حقيقة أخرى، فهو بنفسه في الأعيان، وغيره أعني الماهيات به في الأعيان».

(٢) لاحظ: المصدر نفسه، الجزء ١، الصفحتان ١٣٤ و١٣٥.

(٣) صدر الدين الشيرازي، **الأسفار**، الجزء ٥، الصفحة ٢؛ نقلًا عن: **النظام الفلسفي لمدرسة الحكمة المتعالية**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ١٤٢.

المسألة الثالثة: أصالة الوجود أم أصالة الوجود والماهيّة

يُعتبر الأستاذ الشيخ غلام رضا الفياضي من الأساتذة البارزين في الفلسفة الإسلامية لاسيّما الحكمة المتعالية في حوزة قم المقدّسة. وبنظري القاصر فإنّه من أشهر الشخصيّات على هذا الصعيد في الطبقة التي تلي طبقة الأساتذة من الرعيل الأول أعني تلامذة العلامة الطباطبائي.

وبإنصاف فإنّ الرجل لا يُعدّ شارحًا فحسب لمدرسة الحكمة المتعالية، بل هو صاحب نظر، وناقد بنسبةٍ عالية لهذه المدرسة.

يرى الشيخ الفيّاضي أنّ الحقّ في مسألة أصالة الوجود والماهيّة هي القول بأصالتهما معًا، لكن لا بالمعنى الذي ذهب إليه الشيخ أحمد الأحسائي، المستلزم لأن يكون لكل واحد منهما واقعيّة تخصّه، وإنما بمعنًى آخر وهو أن يكون الموجود الخارجي وهو واحد مصداقًا بالذات لكلَيهما. فالوجود والماهية كلاهما أصيل والواقعيّة الخارجية الواحدة مصداق حقيقيّ لكلَيهما(1).

وقد استشهد الشيخ لدعواه هذه بكلمات لصدر المتألّهين نفسه، يُستفاد منها كون الواقعية الخارجيّة منتسبةً إلى حقيقة الوجود والماهيّة بمعنًى واحد، وهذا يعني أنّ الوجود في كلّ شيء متّحد مع ماهيّته خارجًا، وأنّ هذا الشيء مصداق لكلَيهما بنسبة واحدة على حدّ سواء(2).

الأستاذ عبوديت وضمن عمله الساعي لبيان المعالم الأساسية لمدرسة الحكمة المتعالية، وعلى رأسها القول بأصالة الوجود، توقّف مليًّا عند نظر الشيخ الفياضي وحاول ببراعة شرحه، ثم قام بنقده ودافع عن نظر صدر المتألّهين في القول بأصالة الوجود واعتباريّة الماهيّة.

وخلاصة ما ذكره في المقام أنّه لا بدّ من التمييز بين معنيَي الموجود اللذَين تقدّم الإشارة إليهما. حين حمله على الوجود والماهية. فعندما نقول إنّ الماهية موجودة نقصد أنّها تحكي حكاية نفس أمريّة عن الخارج، وأنّها مرآة له. بينما عندما نقول إنّ الوجود موجود نقصد أنّه هو الذي يملأ الواقع الخارجي. ومن هنا كان الوجود في صدقه على الواقعية الخارجية يختلف عن الماهية، ذلك أنّ الماهية لا تمثّل عين الواقعية لعدم كونها طرفًا مقابلًا للعدم، بينما الوجود يمثّل عين الواقعية لوقوعه مقابلًا للعدم، وما هو في الخارج يمثّل طرفًا مقابلًا للعدم لكونه عين الواقعيّة والتشخّص والخارجية. فالوجود هو الموجود أولًا وبالذات والماهية موجودة ثانيًا وبالعرض(3).

---

(1) لاحظ: **نهاية الحكمة**، مصدر سابق، الجزء 1، الصفحتان ٤٣ و٤٤، الحاشية رقم ٩.

(2) لاحظ كلام المؤلف في: **النظام الفلسفي لمدرسة الحكمة المتعالية**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحتان ١٤٥ و١٤٦، الحاشية رقم ٢.

(3) المصدر نفسه، الجزء ١، الصفحتان ١٤٩ و١٥٠.

يقول: «إنّ دليل صدر المتألّهين على أنّ حقيقة الوجود هي نفس الواقعيّة الخارجيّة ليس مجرّد أنّ مفهوم الوجود يصدق على الواقعيّة الخارجيّة حقيقةً وبالذات، حتى نصل من الصدق الحقيقي وبالذات للمفهوم الماهوي على الواقعية المذكورة إلى نفس هذه النتيجة فيما يرجع إلى الماهية [...] بل ثمّة نكتة أخرى دخيلة أيضًا، وهي أنّ نفس مفهوم الوجود يحكي عن أنّ هذا المفهوم إذا كان قابلًا للحمل على شيء بحمل هو هو حقيقة وبالذات [...] فإنّ التشخّص وكونه منشأً للأثر ولطرد العدم هو من ذاتيات تلك الحقيقة [...]»[1].

ومعنى كلامه أنّ مفهوم الوجود إنما يُحمل على الحقيقة الخارجيّة باعتبار أنّها منشأ للأثر، وطاردة للعدم، وهي في الطرف المقابل له، وليس هذا إلّا لوجودها.

ولا يقف فكر المؤلف وقلمه عند هذا الحد، بل يتقدم أكثر من ذلك ليقول إنّ تفسير الأصالة والاعتبار بالصدق أولًا وبالذات في الأصيل، وبالصدق ثانيًا وبالعرض في الاعتباري وهو ما ذكره أستاذه الشيخ المصباح اليزدي ليس بتفسير صحيح لهما لأنّه ناظر إلى المعنى الأول للموجودية أي الحكاية والانطباق، والحال أنّ صدر المتألهين يريد من الأصيل الموجود بالذات ومن الاعتباري الموجود بالعرض. أي إنّه ناظر إلى المعنى الثاني للموجودية وهي العينية والهوهوية الحقيقيّة[2].

وفي نهاية المطاف

إنّ كتاب **النظام الفلسفي لمدرسة الحكمة المتعالية** يعتبر تجربةً مميّزةً على صعيد التحليل والنقد والتشريح لمدرسة الحكمة المتعالية. وهو وكما أسلفت الذكر يكشف عن تتبع لمؤلّفه قلّ نظيره، وعن فهم عميق لهذه المدرسة. إنّ مؤلفه بإماطته اللثام عن كثير من حقائق هذه المدرسة يفتح الباب واسعًا أمام الباحثين التواقين للتعرّف بعمق على مدرسة صدر المتألّهين، وهو المعدود وبحق ضمن الفلاسفة المبدعين بل وفي طليعتهم.

لقد اتّصف مؤلّفنا الكريم بالجرأة العلمية الممدوحة التي لا تجد ضيرًا في مناقشة الكبار حتى لو كانوا أساتذةً له، ما دامت اللغة رصينةً والاحترام موجودًا، والهدف إنما هو الوصول إلى الحقيقة.

(١) المصدر نفسه.
(٢) لاحظ: المصدر نفسه، الصفحة ١٥١، الحاشية رقم ١.